الأسطول

بحرية الفينيقيين والعبرانيين والفراعنة

ليس في الأيدي نصٌ يركن إليه لمعرفة اصطلاح شعوب الشام القدماء في بحريتهم. وسواحل هذه الديار المستطيلة الممتدة من العريش إلى خليج الإسكندرونة تحتاج في اتصالها إلى مراكب للتجارة وغيرها. ولم يعرف أن عظام الأنهار في الشام كالأردن والعاصي كانت تجري فيها سفن إلا الفرات، فإنه كان يحمل مغادي وحراقات وجلبات تذهب وتجيء بين الشام والعراق.

وأهم من عرف بمعاناة البحار أهل فينيقية سكان الساحل الأوسط وما كانوا أعظم شعب بحري درج على هذه الأرض فقط؛ بل كانوا أعظم الشعوب القديمة في العالم جرأة على الأسفار في البحار، وكانت أُصولهم على الأرجح من شعوب بحارة جاءوا من البحرين في خليج فارس ونزلوا هذا الساحل الجميل فظهرت كفاءتهم في اختراق العباب في سالف الأحقاب. والصناعات في الناس تكون بالإرث أو ابنة البيئة، والفينيقيون استوفوا هذين الشرطين فكانا بحارة بالفطرة والبيئة، بحارة بالتربية والحاجة.

ومما ساعد الفينقيين على إجادة صنع السفن كثرة الأخشاب في لبنان ولا سيما شجر الأرز الذي منه كانوا يصنعون مراكبهم الصغيرة والكبيرة. وكانت لهم شئون ما عرفها غيرهم في السير والإسراء، والإقلاع والإرساء، يهتدون بنجمة القطب يستدلون بها على سمت الشمال، ولذلك

كانوا يوغلون في البحار، لا يخشون الأخطار، حتى لقد اجتازوا البحر المتوسط إلى بحر الظلمات وبحر الشمال وغيره، ولم ينازعهم منازع من الشعوب في هذا الباب؛ لأنهم كانوا يكتمون سر الطرق التي يسلكونها ويتشددون في كتمانها. وربما أغرقوا سفنهم إذا اطلع بعض البحارة من الغرباء عنهم على خطة رحلاتهم، فضلًا عن إغراق مراكب من يحاول سرقة أسرارهم في طرقهم البحرية. ولم يعف غير الفينقيين جزائر الكاسيتريد أو جزائر سورلنج في الشاطئ الغربي من الجزائر البريطانية.

ولم يؤثر عن العبرانيين أن كان لهم أسطول بل قوارب لا تبعد كثيرًا عن الساحل على النمط القديم. أما الفراعنة الذين حكموا جزءًا مهمًّا من جنوب الشام وساحله مدة فكانت بحريتهم وصناعتهم[1] في مصر أولًا، ثم جعلت في طرابلس وصور وجبيل لقربها من مستودع الأخشاب الصالحة لصنع السفن، ولم تكن ملاحة للفراعنة من السلائل الأولى حتى الدولة السادسة والعشرين لأنهم ليسوا أُمة حربية.

بحرية الرومان واليونان

كانت البحرية في العهد اليوناني في الشام على مثال بحرية تلك الدولة قوية منظمة. وكانت اليونان أُمة بحرية من الطراز الأول في القديم. ألفوا اليمَّ منذ عرف تاريخهم، ومعظمهم جزائريون طالما عاركوا البحر وعركهم. وانطبع سكان الساحل الشامي بطابعهم وساروا على أقدامهم في سلوك سبل البحار. ومثل ذلك يقال في الرومان الذين طال عهدهم في الشام، فإن أساطيلهم كانت تحمل من شواطئ إيطاليا وإليها تجارات الأمم التي خضعت لسلطانهم. وصعب أن يحكم على بحرية الشام في

(١) الصناعة في العرف اسم المكان المعد لإنشاء المراكب والسفن، نقلت إلى لغات الغرب فصارت أرسنال (Arsenal) وعادت إلى العرب من طريق الترك باسم «ترسانة».

الدور الروماني ولعلها لم تخرج في كل حال عن طور اليونان، ولا شك أن بعض المواني الشامية كان لها صناعات كما كان لها في كل دور. ويمكن أن يقال على الجملة: إن الشام لم يعرف له منذ عرف تاريخه إلى الفتح الإسلامي بحرية خاصة وافية بالغرض بالنسبة لتلك الأعصر إلا في عهد الفينيقيين، وكان في سائر أدواره مندمجًا في الأمم القوية التي امتدَّ سلطانها عليه.

العرب والبحار

كان العرب لا يحبون البحار لبعدهم عنها ولما كان يبلغهم من أخطارها. وقد اتفق في أوائل الفتوح أن العلاء بن الحضرمي عمل أسطولًا واجتاز من البحرين إلى فارس ووصل إلى إصطخر، ودمر الأعداء بأسطوله فقتل كثير من رجاله، فغضب عمر بن الخطاب؛ لأن هذا العمل لم يكن عن مشورته. ولما كان معاوية على جند دمشق والأردن ألحَّ على عمر في غزو البحر، فكتب الخليفة إلى عامله في مصر عمرو بن العاص يريده على أن يصف له البحر فكتب إليه: «يا أمير المؤمنين، إني رأيت البحر خلقًا كبيرًا يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق». فكتب عمر إلى معاوية: «لا والذي بعث محمدًا بالحقِّ، لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا ... وتالله لمسلم واحد أحب إليَّ مما حوت الروم. فإياك أن تعرض لي، وقد علمت ما لقي العلاء مني ولم أتقدم إليه في مثل ذلك».

وقد علل ابن خلدون امتناع المسلمين عن ركوب البحر بأن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه. والروم والفرنج لممارستهم أحواله، ومرباهم في التقلب على أعواده، مرنوا عليه وأحكموا

الدربة بثقافته. فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم، وصارت أُمم العجم خولًا لهم وتحت أيديهم، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أُممًا، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته، تاقت أنفسهم إلى الجهاد فيه وإنشاء السفن والشواني، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر. واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى ضفته مثل الشام وغيرها.

نعم كان العرب بادئ بدء يتخوفون ركوب البحر، فقد استعمل الوليد بن يزيد الأسود بن بلال المحاربي على بحر الشام، فقدم عليه أعرابي من قومه ففرض له وأغزاه البحر، فلما أصابت البدوي تلك الأهوال قال شعرًا منه:

فللـــه رأيٌ قـــادني لـــسفينةٍ ... وأخـــضرَ مـــوّار الـــسرار يمـــور
تـرى متنـه سـهلًا إذا الـريح أقلعـت ... وإن عـصفت فالـسهل منـه وعـور
فيـا ابـن بـلال للـضلال دعـوتني ... ومـا كـان مثلـي فـي الـضلال يـسير
لـئن وقعـت رجـلاي فـي الأرض مـرةً ... وحـان لأصـحاب الـسفين وكـور
وسـلمت مـن مـوجٍ كـأن متونـه ... حـرارٌ بـدت أركانـه وثبيـر
لتعرضـنَّ اسـمي لـدى العـرض حلقـة ... وذلـك إن كـان الإيـاب يـسير
وقـد كـان فـي حـول الـشرية مقعـدٌ ... لذيـذٌ وعـيشٌ بالحـديث غريـر

أول خليفة غزا في البحر الشامي والبحرية الأموية

منع عمر عماله من غزو البحر بعد إخفاق العلاء في غزوته البحرية. ولما قلد عمر عبد الله بن قيس النظر في ثغور الشام جميعها كتب إليه عمر: إني لا أحمل المسلمين على أعواد نجرها نجار وجلفطها الجلفاط

(والجلفاط الذي يشد ألواح السفينة) وما زال به معاوية حتى أقنعه. وفي بيروت عمر معاوية المراكب وجهز الجيش إلى قبرس ومعهم أم حرام - واسمها الرميصاء بنت ملحان زوجة عبادة بن الصامت- فلما رجعت رابطت في بيروت وماتت فيها. ويقول المقريزي: إنَّ الناس كانوا يغزون بنسائهم في المراكب. وشتا المسلمون بأرض الروم سنة اثنتين وأربعين وهو أول مشتى شتوه بها، فاستعمل معاوية على أهل المدينة عبد الملك بن مروان وهو يومئذ ابن ست عشرة سنة، فركب عبد الملك بالناس البحر. فلما ولي عثمان بن عفان طلب إليه معاوية أن يغزو البحر فوافقه على ذلك، على أن ينتخب من يحملهم في المراكب ولا يقترع بينهم، فمن اختار الغزو طائعًا يحمله ويعينه ففعل. وغزا معاوية الغزوة الأولى فكان أول مسلم غزا في البحر، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الحاسي خليفة بني فزارة فغزا خمسين غزوة من بين شاتية وصائفة في البر والبحر ولم يغرق فيه أحد. وأغزى معاوية عقبة بن عامر الجُهني في البحر وأمره أن يتوجه إلى أرواد. وفتح هذه الجزيرة جُنادة بن أبي أمية فنزلها المسلمون واتخذوا بها أموالًا ومواشي يرعونها حولها، فإذا أمسوا أدخلوها الحصن. ولهم ناطور يحذرهم ما في البحر ممن يريدهم بكيد، فكانوا على حذر منهم، وكانوا أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر فيقطعون سفنهم. وكان معاوية يدر لهم الأرزاق والعطاء، والعدو يخافهم. فلما مات معاوية أقفلهم يزيد بن معاوية. وجُنادة بن أبي أُمية الأزدي من صحابة الشام كان على غزو الروم في البحر لمعاوية زمن عثمان إلى أيام يزيد؛ إلا ما كان من أيام الفتنة -فتنة علي ومعاوية- وشتى في البحر سنة (٥٩).

وبذلك عرفنا أن معاوية أدرك بصائب رأيه أن سواحل الشام؛ بل الشام لا ينجيها من غزوات الروم إلا إيجاد أسطول عربي يغزو سواحلهم الحين

بعد الحين، وإلا تعذرت المحافظة على السواحل وبطلت التجارات. وكان المسلمون قبل ذلك على خطر أبدًا يتخطفهم أعداؤهم من عُقر دارهم، ويطردونهم حتى في أرضهم ويحملونهم أسرى يبيعونهم بيع الإماء والرقيق؛ أي أن الروم يغزون الشام إذا لم يغزهم أهله فحاول معاوية أن يقنع الخليفة الثاني فتحامى هذا الإذن بركوب البحر خوفًا على المسلمين، متأثرًا مما أصابهم يوم غزوة البحرين، ولأنه لم ير ما رآه عامله في الشام من الخطر الذي يدهم القطر إن لم تتواز قوته البحرية بقوته البرية.

قال محبوب المنبجي: وفي السنة الثالثة لعثمان ركب معاوية البحر وصار إلى قبرس فافتتحها، وكان معه ألف وسبعمائة سفينة مملوءة سلاحًا وأموالًا؛ فسبى منها ومن الجزائر المطيفة بها خلقًا من الناس، ونزل على جزيرة أرواد (رودس) ولم يصل إليها، وفي الربيع رجع في جيوش أعظم وأكثر من الأولى فنزل عليها وضيق عليهم جدًا، فلما رأى أهل أرواد الشدة التي هم فيها والعساكر التي أظللتهم طلبوا الأمان على أن يخرجوا إلى سورية ويسكنوا حيث شاءوا ووفى لهم معاوية بن أبي سفيان وخرجوا منها فأمر بهدم سورها فهدم وأُحرق.

وذكر المنبجي أيضًا أنه في السنة الرابعة عشرة لمعاوية غزت العرب الروم في لوقية، فلما توسطوا البحر لحقهم بعض الروم في سفينة فألقى النار في السفن فاحترقت كلها وهم -أي الروم- أول من أخرج النار وصارت لهم عادة. وقد كان المسلمون في خطب جلل من هذه النار في البحار وهي الصواريخ وكانت إذا أصابت المراكب لا تطفأ بالماء بل تطفأ بالتراب الندي أو الرمل ومخترعها كالينكوس من أهل بعلبك لجأ إلى الروم سنة (٦٧٣م) فعلمهم هذا التركيب الذي كان له في الحروب البحرية أهاويل.

وممن غزا في أيام معاوية في البحر بُسر بن أبي أرطاة وفُضالة بن عبيد الأنصاري. وفي سنة (٤٩) كانت غزوة يزيد بن شجرة الرّهاوي في البحر فشتى بأهل الشام. وغزا في البحر أيضًا عمرو بن يزيد الجهني (٥٨). وروى المنبجي أن معاوية بن أبي سفيان استعد لقصد القسطنطينية في السنة التاسعة لعثمان والرابعة والثلاثين للعرب، وأعدَّ سفنًا كثيرة في مدينة طرابلس على ساحل البحر، وحمل من السلاح أمرًا عظيمًا، وأن الروم أحرقوا سفن العرب فبعث معاوية بجيش من البر ففتح قسمًا من ديارهم وسبى من أهلها مائة ألف نفس. ثم جاء ملك الروم في سفن كثيرة من البحر، فلما التقى الجمعان كانت الهزيمة على الروم، وكاد ملكهم أن يغرق، وتخلص بعد أن قتل من الروم خلق كثير حتى صار البحر دمًا، ورجع العرب بغلبة كبيرة.

وفي هذا برهان جلي على العظمة التي بلغها الأسطول العربي بسرعة، وما أُحرق منه في طرابلس لم يؤثر فيه؛ لأن الصناعة كانت أيضًا في عكا وصور وربما في غيرهما من ساحل الشام، ومن عكا ركب معاوية البحر لغزو قبرس، وبعد أن أحرق الروميان اللذان كانا في خدمة الأسطول في طرابلس أسطول هذه الفرضة البحرية بأجمعه، أصبح من المتعذر على معاوية أن يأمن على أساطيله من كان ائتمنهم، وهل أنباط النصارى في رأي بعضهم، ممن جعلتهم العرب ربابنة سفنهم ونواتيهم في مراكبهم الحربية، والغالب أن العرب تعلموا ثقافة البحر من سكان ساحل الشام، ثم اعتمدوا على أنفسهم شأنهم في كثير من مقومات مدنيتهم.

ومع هذا كان أكثر البحرية والذين يتكفلون بغزو الروم من أهل الإسلام، وكان الروم معهم ولا سيما في القرون الثلاثة الأولى للهجرة في أمر مريج. قال المسعودي: أخبرني بعض الروم ممن كان قد أسلم وحسن إسلامه أن الروم صوَّرت عشرة أنفس في بعض كنائسها من أهل البأس

والنجدة والمكايد في النصرانية والحيلة من المسلمين، منهم الرجل الذي بعث به معاوية حين احتال على البطريق فأسره من القسطنطينية، فأقاد منه بالضرب ورده إلى القسطنطينية، وعبد الله البطال وعمرو بن عبيد الله وعلي بن يحيى الأرمني والعريل بن بكار وأحمد بن أبي قطيفة وقرنياس البيلقاني صاحب مدينة أبريق (ازنيق؟) وحرس خادس أخت قرنياس ويازمان الخادم في موكبه، والرجال حوله وأبو القاسم بن عبد الباقي. ومن رجال البحر الذين طالما تبرم بهم الروم ليون الطرابلسي ومعيوف بن يحيى الحجوري من أهل دمشق والمغيرة بن عبيد الأزدي الخراساني ولي غازية البحر في أيام يزيد بن عبد الملك.

وصف أسطول شامي

وللبحتري قصيدة في مدح أحمد بن دينار يصف فيها مركبًا كان اتخذه وهو والي البحر وغزا فيه بلاد الروم. قال العسكري في ديوان المعاني: لم يصف أحد من المتقدمين والمتأخرين القتال في المراكب إلا البحتري، وعدوا قصيدته هذه من عيون قصائده وفضلوها على كثيرٍ من الشعر وهي التي يقول من جملتها:

ولما خطونا دجلةَ انصرم الهوى ... فلم يَبْقَ إلا لفتةُ المتذكر

وخاطرُ شوقٍ ما يزال يهيجنا ... لبادين من أهل الشآم وحُضَّر

إلى أن قال:

ولما تولى البحر والجود صنوه ... غدا البحرُ من أخلاقه بين أبحر

أضاف إلى التدبير فضلَ شجاعة ... ولا عزم إلا للشجاع المدبِّر

إذا شجروه[1] بالرماح تكسرت ... عواملها[1] في صدر ليث غضنفر[2]

---

(١) شجره بالمرح: طعنه.

غدوت على «الميمون»[٣] صبحًا وإنما غدا المركب الميمون تحت المظفر
أطــلَّ بعطفيــه ومــرَّ كأنمــا تشرف[٤] من هادي حصان مشهر[٥]
إذا زمجــر النــوتي فــوق علاتــه[٦] رأيــت خطيبًــا فــي ذؤابــة منبــر
يغـضون دون الإشـتيام[٧] عيـونهم وفـوقَ الـسماط[٨] للعظـيم المـؤمّر
إذا عـصفت فيـه الجنـوب اعتلـى لهـا جناحـا عُقـابٍ فـي الـسماء مُهجِّـر
إذا مـا انكفـا فـي هبـوة[٩] المـاء خلتـه تلفـع فـي أثنـاء[١٠] بُـرد محبَّـر
وحولــك ركــابون للهــول عــاقروا كئـوس الـردى مـن دارعـين وحـسّر
تميـل المنايـا حيـث مالـت أكفهـم إذا أصـلتوا حـدَّ الحديـد المـذكّر
إذا رشـقوا بالنـار لـم يـك رشـقهم ليُقلـع إلا عـن شـواءٍ مقتّـر[١١]
صدمت بهم صهب العثانين[١] دونهم ضـرابٌ كإيقـاد اللظـى المتـسعر

---

(١) عامل الرمح وعاملته: صدره دون السنان، والجمع العوامل.
(٢) الأسد الغضنفر كسفرجل: الغليظ الخلق المتغضن.
(٣) الميمون: اسم المركب، والمظفر: الممدوح.
(٤) يقال: أشرف المربأ: علاه كتشرفه وشارفه، ومثله تشوف من السطح: تطاول ونظر وأشرف. والهادي المتقدم من كل شيء أو العنق ويقصد به مقدم السفينة.
(٥) المشهر: فرس المهلهل بن ربيعة التغلبي، ولعله يريد بالمشهر كل فرس كريم.
(٦) العلاة: السندان حجرًا كان أو حديدًا. ولعل مراده بالعلاة هنا برج السفينة وقد علاه الربان.
(٧) الإشتيام (الاشتينام) رئيس المراكب البحرية الحربية.
(٨) السماط بكسر السين يقال: قام بين السماطين ويقال: قام القوم حوله سماطين؛ أي صفين.
(٩) انكفأ القوم: رجعوا وتبددوا وانكفأ إلى كذا: مال إليه. الهبوة: الغبرة؛ ويعني بها رشاش الماء.
(١٠) أثناء: طيات.
(١١) المقتر: ذو القتار بالضم؛ وهو الدخان من المطبوخ والشواء.

يسوقون أسطولًا كأن سفينه ... سحائب صيف من جَهام وممطر
كأن ضجيج البحر بين رماحهم ... إذا اختلفت ترجيع عَوْد مجرجر[٢]
تقارب من زَحْفَيْهِمُ فكأنما ... تؤلف من أعناق وحش منفر
فما رِمتَ[٣] حتى أجلت الحرب عن ... مقطعة فيهم وهامٍ مُطير
على حين لا نقع، تطوّحه الصَّبا ... ولا أرض تُلفى للصريع المقطّر
وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده ... مليئًا[٤] بأن توهي صفاة ابن قيصر
جدحت له الموتَ الزعافَ فعافه ... وطار على ألواح شطْب[٥] مُسَمَّر
مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها ... عليه ومن يول الصنيعة يشكر
إذا الموج لم يُلغه إدراكَ عينه ... ثنى في انحدار الموج لحظة أخزر
تعلق بالأرض الكبيرة بعدما ... تقنّصه جري الردى المتمطر[٦]

سواحل الشام ونفقات الأسطول والمناور والرباطات والفداء

كانت سواحل أجناد الشام كثيرة، ولكن الصناعة صناعة المراكب كانت في صور وعكا وطرابلس على الأكثر. وسواحل جند حمص في الإسلام انطرطوس وبانياس واللاذقية وجبلة، وسواحل جند دمشق عرقة

(١) الأصهب والجمع صهب: هو الذي يخالط بياض شعره حمرة، والعثانين: جمع عثنون وهي اللحية؛ يعني بذلك الروم لأنهم شقر اللحى.
(٢) مجرجر: من جرجر البعير ردد صوته في حنجرته، والعود: المسن من الإبل والشاء.
(٣) فما رمت: ما برحت مكانك.
(٤) المليء بالأمر: المضطلع به القدير عليه.
(٥) الشطب: الطويل الحسن الخلق، وقد أراد به المركب.
(٦) المتمطر: الفرس السريع. والأرض الكبيرة هي اليابسة التي نطلق عليها اليوم اسم القارة.

وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحصن الصرفند وعدلون، وسواحل جند الأردن صور وعكا، وسواحل جند فلسطين قيسارية وأرسوف ويافا وعسقلان وغزة، وسواحل جند قنسرين الإسكندرونة والسويدية. وعلى امتداد سواحل الشام لم يحدثنا التاريخ أنه أُغير عليها إلا من البر، وما جاءها من الحملات البحرية في عدة أدوار ولا سيما على عهد الإسكندر والرومان والصليبيين والأتراك أو الأسطول الإنكليزي سنة (١٧٩٩م) والأسطول الدولي سنة (١٨٤١) وأسطول الحلفاء سنة (١٩١٨) لم يكن في الحقيقة إلا ثانويًا أُريد به دك بعض المواقع الحربية بنيران السفن أو ضمان جلب الذخيرة أو عدم قطع خط الرجعة من البر.

وذكر قدامة أنه كان يجتمع إلى مراكب الشام التي كانت تغزو من الثغور الشامية مراكب الشام ومصر من الثمانين إلى المائة، وإذا عزموا على الغزاة في البحر كوتب أصحاب مصر والشام في العمل على ذلك والتأهب له ليجتمع بجزيرة قبرس، ويسمى ما يجتمع منها «الأسطول» كما يسمى ما يجتمع من الجيش في البر «المعسكر»، والمدبر لجميع أمور المراكب الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية، ومقدار النفقة على المراكب إذا غزت من مصر والشام نحو مائة ألف دينار.

وذكر المقريزي أن أول ما أُنشئ الأسطول بمصر في أيام المعتصم سنة (٢٣٨) فأُنشئت الشواني برسم الأسطول وجعلت الأرزاق لغُزاة البحر كما هي لغزاة البر، واجتهد الناس في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو، وكان لا ينزل في رجال الأسطول جاهل بأمور الحرب، وقد قويت العناية بالأسطول على عهد المعز الفاطمي، فكانت المراكب تنشأ بمدينة مصر وإسكندرية ودمياط من الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات وتسير إلى الساحل مثل صور وعكا وعسقلان. وكانت جريدة قواد الأسطول في آخر أمرهم

تزيد على خمسة آلاف مدونة، منهم عشرة أعيان يقال لهم: القواد ولهم رواتب دارة، وكانت عدة المراكب السائرة في أيام المعز لدين الله تزيد على ستمائة قطعة، وآخر ما صارت إليه في آخر الدولة نحو مائة قطعة.

ولقد اتخذ المسلمون المناور البحرية لهداية السفن على الشواطئ الشامية، وكانت في معظم السواحل رباطات للنَيْل من الأعداء إن قدموا بحرًا، فأهل دمشق يرابطون في بيروت، وأهل القدس في الرملة أو يافا، وأهل حمص في طرابلس، وكان لقرية كفر سلام من قرى قيسارية في فلسطين رباطات على البحر يقع فيها النفير، وتقلع إليها شلنديات الروم وشوانيهم معهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار، وفي كل رباط قوم يذهبون في الرسالات، ويحمل إليهم أصناف الأطعمة ويضج بالنفير لما تتراءى مراكبهم، فإن كان الوقت ليلًا أُوقدت منارة ذلك الرباط، وإن كان نهارًا دخنوا، ومن كل رباط إلى القصبة عدة منائر شاهقة، قد رتب فيها أقوام فتوقد المنارة التي للرباط ثم إلى التي تليها ثم الأخرى، فلا يكون ساعة إلا وقد أُنفر بالقصبة، وضرب الطبل على المنارة، ونودي إلى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة واجتمع أحداث الرساتيق ثم يكون الفداء رجل يشتري رجلًا وآخر يطرح درهمًا أو خاتمًا حتى يشتري ما معهم. ورباطات هذه الكورة التي يقع بهن الفداء غزة، ميماس، عسقلان، ماحوز، أسدود، ماحوز يبنا، يافا، أرسوف -قاله المقدسي. والماحوز هو المكان الذي بينهم وبين العدو، وفيه أساميهم بلغة الشام، ومنه الحديث فلم نزل مفطرين حتى بلغنا ماحوزنا. وكانت حيفا تشارك هذه المواني في صنع المراكب، وتسمى الأبنية الخاصة بالملاحة البحرية بالجودي إشارة إلى سفينة نوع التي استوت على الجودي في الجزيرة.

وكانت الحروب سجالًا بين المسلمين والروم، ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم، ويأسر بعضهم بعضًا لكثرة هجوم أساطيل الإسلام على موانى العدو، وكان أول فداء وقع في الإسلام أيام بني العباس، ولم يقع في أيام بني أُمية فداء مشهور، وإنما كان يفادي بالنفر بعد النفر في سواحل الشام ومصر وغيرها، إلى أن كانت خلافة الرشيد فوقع الفداء الأول باللامس من سواحل البحر الرومي قريبًا من طرسوس في سنة تسع وثمانين ومائة على يد القاسم بن الرشيد وهو معسكر بمرج دابق من قنسرين، ففودي بكل أسير كان بالروم من ذكر وأُنثى، وحضر هذا الفداء من أهل الثغور وغيرهم من أهل الأمصار نحو من خمسمائة ألف إنسان بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوة، وقد أخذوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء، وحضرت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزيّ معهم أسارى المسلمين، فكان عدة من فودي به من المسلمين في اثني عشر يومًا ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير، وجرى الفداء في أدوار مختلفة. ذكر هذا المقريزي ثم عدد ما وقع من الفداء في أوقات مختلفة إلى القرن الرابع، وكان أكثر عدد من فودي به في خلافة الواثق ٤٣٦٢ من ذكر وأنثى.

الأساطيل في القرون الوسطى

ومعلوم ما كان من أسطول الفاطميين من المنافع في زمن الحروب الصليبية، فكان ينجد المسلمين في عسقلان ويافا وصور وبيروت وطرابلس وجبلة واللاذقية. وكانت أساطيل الفاطميين في الساحل مرتبة في عسقلان وعكا وصور وغيرها، وذلك قبل أن يغلبهم الصليبيون على الساحل. وكان الأسطول من جملة العوامل في بقاء الأمل باسترجاع ما جرى احتلاله من الأرض، وكان الظفر حليف الجيوش البحرية لكثرة ما لها من الامتيازات، وفي العادة أن الأسطول إذا غنم ما عساه أن يغنم لا

يتعرض السلطان منه إلى شيء ألبتة، إلا ما كان من الأسرى والسلاح فإنه للسلطان، وما عداهما من المال والثياب ونحوهما فإنه لغزاة الأسطول لا يشاركهم فيه أحد.

ولم يقصر صلاح الدين ثم الدولة الأيوبية ثم دولة المماليك البحرية ودولة المماليك البرجية في إنشاء السفن الحربية والتجارية، وإن كانت عنايتهم بجيوشهم البرية أكثر، وما كان الصليبيون ينالون من المسلمين في الساحل إلا يوم تصل سفنهم من موانى الغرب ويكثر عددها، حتى إذا أقلعت وخلا الساحل تغزوه مراكب الدولة مقلعة من الثغور، أو يمد من يجب إمداده من المسلمين في الساحل الشامي، وعلى الرغم من المعاهدات التي عقدت بين أصحاب مصر والشام وبين أمراء إيطاليا وإسبانيا والبرتقال، بعد القضاء على الصليبيين في الساحل، فإن بعض الفرنج والروم عادوا إلى طريقتهم القديمة من غزو البحر فغزوا صيدا وبيروت وطرابلس، ولما غزوا إسكندرية سنة (٧٦٧هـ) ارتأى رجال الدولة في مصر أن يعمروا من غابة بيروت مراكب كثيرة، حمالات وشواني، للدخول إلى قبرص، فأحضروا الصناع من جميع المماليك، وعمروا مسطبة بظاهر بيروت، وكانت المراكب تعمل بها على بعد من البحر وأحضر الجند من دمشق فأُنزل بين البحر والمراكب حذرًا من مراكب صاحب قبرس لئلا يحضر العدو على حين غفلة فيحرق ما يعمل من المراكب، وعملت حمالتان كبيرتان الواحدة باسم (سنقر) والثانية باسم (قراجا) وهما أميران من أمراء ذلك الوقت، ثم أهمل الأسطول إلى أن جاء الجنوية (٧٨٤هـ ١٣٨٢م) إلى صيدا وأخذوها ثم جلوا منها، ثم عادوا

فغزوا بيروت ورمى الفرنج المسلمين بالجروخ[1] والمدافع -روى ذلك صالح بن يحيى.

وكانت جزيرة قبرس مما يرغب الفاتحون بالاستيلاء عليه لأنها مفتاح الشام، وهي تعد من بحره وقطره، ولذلك كان إذا استولى عليها صاحبها من الروم وقوي سلطانه صانعه صاحب مصر والشام، وإذا استضعفوه أسروه وحملوه إلى العاصمة فأهانوه وأذلوه. وكان ملك إنكلترا، أو ملك الانكتار كما يقول مؤرخنا في الحروب الصليبية استعان بهذه الجزيرة، وقد جعلها ريشاردس قلب الأسد لما جاء بأسطوله العظيم لفض الحرب مع صلاح الدين قاعدة أعماله الحربية البحرية. فانظر كيف يعيد التاريخ نفسه، وكيف يتسلسل الفكر في الغرب وينقطع في الشرق بانقطاع من يبتدعه ويؤسسه.

وكان الجنوية والبياسنة والبنادقة من سكان سواحل إيطاليا قد استولوا على البحار في تلك العصور، كما استولت عليها بريطانيا العظمى في العصرين الأخيرين، وكانوا احتلوا بعض جزر البحر المتوسط يأتون بعض السواحل الشامية يغزونها، فكانت حكومات الشام تعنى بالمراكب أشد العناية والاعتماد في نقل الجيوش من مصر والشام على طريق البر؛ لأنه أسلم، اللهم إلا في أوقات مخصوصة من السنة وعندما يُصافي ملوك الفرنجة والروم وصاحب قبرس. وظلت العناية بالأساطيل على عهد حكومات المماليك تختلف باختلاف عقل السلطان المتغلب، وتفرُّغ ذهنه لصيانة مملكته من الطوارئ الخارجية. أمّا السفن التجارية فزادت العناية بها خصوصًا وأهل الشام ما برحوا منذ الزمن الأطول أُمة تمارس الأسفار

(١) الجروخ: جمع جرخ فارسية معناها الدولاب؛ وهي آلة ترمى بها الحجارة والنفط وغيرهما.

البحرية، وتعرف من أين تؤكل الكتف في المتاجر، وقد شوهدت آثار تجارتها حتى في جزائر بريطانيا وبلاد النروج وفنلندة ومعظم سواحل البحر المتوسط.

وكانت الحروب الصليبية معلمة لأهل أوربا على طريق البحار إلى الشرق، ومعلمة لأهل الشام على اختراق العباب إلى أوربا، وكل ذلك على سفن ومراكب حفظت أمثلة منها في المتاحف البحرية في الغرب ولا سيما في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا. وكانت السفن الحربية تسمى بأسماء كثيرة منها الأغربة والبُسطات والأعواديات والبركوشات والشلنديات والمسطحات والحراريق (الحراقات) واليخوت والشواني والقراقير. ولكثرة اختلاط النواتية والملاحين من أهل الشام وغيرهم من السواحل الإسلامية بأبناء حرفتهم النازلين على الشاطئ المقابل للشاطئ الإفريقي والشامي، أخذ الفرنج كثيرًا من المصطلحات البحرية عن العرب، ونقلوها إلى لغاتهم محرفة مرخمة، ولا تزال إلى اليوم تقرؤها في معاجم اللغات اللاتينية خاصة، ومنها «أمير الماء» فحرف منها الفرنج وصاغوا لفظ «اميرال» والأصل فيها أمير الماء -أي الربان الأعظم وقائد الأسطول- وقد أخذ الفرنج من العرب استعمال إبرة السفينة (الحك أو الحقة) وكان العرب أخذوها عن الصينيين فيما قيل وأخذها الفرنج عنهم في الحروب الصليبية.

ولما فتح العثمانيون الشام ومصر كان الأسطول العثماني في إبان قوته، وكانت بعض سفنهم تقلع من موانى الروم وتأتي ساحل الشام، وبعضها يقف بالمرصاد لقرصان البحر، وإذا حدثت فتنة داخلية كانوا يجهزون بعض مراكبهم لتساحل الشام وتشاطئ الأرض التي نجم فيها الشر، حتى إذا ضعفت بحرية العثمانيين بضعف الدولة -ولا سيما بعد أن أحرق أسطولها والأسطول المصري في نافارين يوم الفتنة اليونانية سنة

(١٨٢٧) أصبحت السفن التي يتمتع سكان السواحل بمرآها للأمم الحديثة، ولا سيما الروسيون والجنويون والبنادقة والفرنسيون والإنكليز، وقلَّت سفن البرتقاليين والإسبانيين؛ لأن طرق مستعمرات هاتين الدولتين وتجاراتهما لم تكن على بحرنا، وسفنهم تمخر العباب إلى وجهات أُخرى فيما أميركا وآسيا. والغالب أن الصناعة -أي صنع المراكب- كان خاصًّا بالأستانة ولم يعهد في دور العثمانيين أن أنشأوا سفنًا في صناعات الشام. وكان للعثمانيين مراكب في الفرات يستخدمونها لنقل جيوشهم من الشام إلى العراق، ولا سيما في زمن الثورات والأزمات، على ما يفهم من كتاب أسفار البحار لكاتب جلبي.

وانحلت بحرية الترك في أواخر أيامهم حتى صرت لا تشاهد في ساحل الشام إلا على الندر مراكب عثمانية، وهي إذا قيست إلى غيرها تبين الفرق العظيم بين بحرية الأمم المتحركة المتجددة وبحرية الأمة الجامدة الخامدة. وكانت الدولة إن صحت عزيمتها في أواخر أيامها أن تنشئ لها طرادًا أو رعادًا أو غواصة أو دارعة أو يختًا، توصي عليه في صناعات إيطاليا أو فرنسا أو إنكلترا؛ لأن العلم بذلك فُقد من بنيها، ولم تسر مع العصر في الرقي البحري، كما سارت مع العصر في الجيش البري؛ بمعنى أن الدولة العثمانية أصبحت قبيل انقراضها دولة برية فقط، وكانت تجمع المزيتين البرية والبحرية أيام كانت ترتعد الفرائص منها في الغرب، ويتمنى عظماء ملوكها أن يخطبوا ودها كل ساعة لقوة أساطيلها وجيوشها.

وقد ظهر في حرب چناق قلعة الأخيرة مثال من ترقي بحرية الحلفاء، ونموذج من ترقي جيش العثمانيين، واستبسال قوادهم وضباطهم وأفرادهم. وفي مغادرة الحلفاء ذاك الشاطئ بعد أن أضاعوا زهاء مائة ألف من جنودهم مدة حربهم عليه سنة وزيادة اعتراف ضمني للعثمانيين

بتفوقهم بجيوشهم البرية، وأن العسكري التركي من خير جنود الأرض صبرًا وإقدامًا على الموت.

قصورنا في البر والبحر

ومن الغريب أن أهل الساحل، ومنهم قسم يفتخر بأنه من نسل الفينيقيين سادة البحار، لم تتعلق هممهم على كثرة ما بلغه الشامي من درجات الغنى والتمدن في مهاجره، أن ينشئوا لهم أسطولًا تجاريًّا صغيرًا على النحو الذي تفعل أضعف الشعوب لتغدو وتروح على الأقل بين سواحل البحر المتوسط والبحر الأحمر والبحر الأسود، يحملون عليها متاجرهم وينقلون قاصديهم وأبناءهم، ويعتمدون عليها في نقل صادرات القطر وورادته، على الصورة التي كانت لليونان قبل أن ينادوا باستقلال بلادهم منذ نحو مائة سنة، فكان لهم أسطول تجاري قلبوه أسطولًا حربيًّا يوم استقلوا. وأغرب من هذا أن يقال للطقر الشامي: إنه مستقل، وما شوهدت قط في قديم ولا حديث، أمة مستقلة لا أسطول لها ولا معسكر. وهذا من أغرب ما يدونه المدونون، من أخبار هذه القرون. ولا سبب لذلك إلا أن بعض أهل الساحل يفضلون أن يعيشوا عبيدًا على أن يعيشوا سادة مستقلين، وكانوا يرون أن فرنسا حاميتهم والمحمي أبدًا مقطور في ذنب حاميه.